وطن الغاب

للكاتب الاسباني
هوراشيو كوبرو جا
ترجمة : خيري حماد

من منا لايعرف شريعة الغاب وطريقة الحياة فيها ·· فلقد أصبحت مثلا نضربه على السنتنا دائما ، وكل ما نشاء ·

لقد عاشت الحيوانات من متوحشة واليفة ، فى الغاب ، قرنا بعد قرن ·· وجيلا بعد جيل ·· يسودها الصفاء والوئام، ويسيطرعليها التفاهم والانسجام ولا يعكر هدوء هذه الحياة ورتابتها الا معارك متعجلة ، ومنازعات وقتية لاتلبث أن تهدأ ، ليعود الغاب الى مألوف عادته ، ترفرف عليه روح واحدة ، هى روح الحرية ، وصفاؤها ·· وما دامت الحرية قائمة ، فالسلام مستتب وارف الظلال ·

وهكذا خيمت السعادة أمدا طويلا على الغاب ، الى أن جاءت النحل ذات يوم تعكر صفوها ، وهى التى ألفت منها جماعات الغاب دائما شيعا من مشاعر التعالى، تحس بها نحوالحيوانات الاخرى التى تعيش معها فى وطن واحد، وتجعلها دائمة التحويم فى الفضاء منتقلة من فنن الى فنن ، تمتص رحيق هذه الا قحوانة لتنقل الى تلك تجنى منها رضابها ·

اجل كانت النحل هى التى قطعت على حياة الغاب رتابتها ، فلقد رأت ذات يوم ، قاربا ينساب مع مياه النهر ·· متجها الى الغاب ، وفى داخله انسان ، وسرعان ماصفقت بجناحيها تدعو حيوان الغاب الى التشاور فى أمر جلل ، فلما تكامل الجميل وانعقد المجلس ، راحت النحل تنقل الى الحيوانات الاخرى ما رأته ، وتقدم اليها تقريرا عن الاعمال التى قام بها الانسان منذ وطئت قدماه أرض الغاب ·

وقالت القطة وهى تومىء بعينيها الى الساحة التى اختارها الانسان وسط الغابة مقرا لسكناه ·· وماذا يهمنا من أمره ، انه مخلوق طيب ، وانا أعرف من يكون ·· انه الانسان ·

وقال السناد ، وهو حيوان لا يقل فى ضخامة حجمه عن الفيل ·· وأى خطر نخشاه من هذا المخلوق ·· وهو لايعدو أن يكون صاحب ساقين ليس الا ·· ؟

وانبرى النمر يرد عليه قائلا ·· ولكن معه بندقية وفى وسعه أن يقتل بها عددا من السناد ·

فقال السناد فزعا : اذن ماالعمل ؟ أرى أن نفر من طريقه ، ونهرب ·

ورد النمر وقد تجهم وجهه ولماذا نفر أو نهـــرب ؟ ألم يختر هو العيش فى الغاب ·· انه حر ·· وفى وسعه أن يقتلنا ، كما ان فى وسعنا أن نقتله · لا ·· لا لن نهرب بل يجب أن نبقى ·

وقال الثعبان ·· أجل لن نهرب ·· وسنبقى ·

ورددت أرجاء الغاب، هتاف الحيوانات وهى تعلن التصميم على البقاء ، والحياة فى الغاب ·

وهكذا عاش الانســـان والحيوانات جنبا الى جنب ، فى الغاب الذى لايعرف الحدود ، ولا يعرف القانون ولاالشرائع الا شريعة القوة ·· فكل من فيه عرضة للقتـــل ، وعرضة للهجوم ، ومع ذلك ، فكلهم يعيشون فى هدوء ودعة وأمان ·

وانقضت سنوات طويـــلة ، ومضى الرجل عن الغاب وكانت جماعة الحيوان قد راقبت ماقام فى استعداد للمضى فى رحلته· ابصرت به وهو ينزل قاربه الى الشاطىء ثم يمضى بعد عبر الغابة هابطا

مع النهر واخترمت جمـــاعة الحيوان منزل الرجل ومعداته ، علم تغر عليهـــا بعد رحيله ، اذ اعتبرت أن ضـــياع ذلك الجزء الصغير من الغابة ، لم يؤثر كثيرا على نفوذها الواسع الحدود فى مملـــكة الغاب ·

لكن النحل ، لم تحترم عزلة هـــذا المنزل الهادىء الوديع ، فى وسط الغاب فاقتحمته مع أشـــــعة الشمس ، عبر النافذة المفتوحة ، وعرتها الدهشة من كل ما رأته فى البيت من عتاد ومتاع ·

ودأبت النحل على اقتحام البيت فى كل يوم ، وفى ذات صباح سقط كتاب من أحد الرفوف وانفتحت صفحـــاته أمام النحل، فقرأت·· وقرأت·· واستوعبت ما ضمته هذه الصفحات من حكمة الرجل ثم عادت طائرة الى الغابة ، وقد استفزها الفرح والنشـــاط ·· ودعت جمـــاعة الحيوان الى اجتماع عاجل ، ثم بادرت الرفاق قائلة : لقد عرفنا الآن ما يتحتم علينا ان نعمله ·· لقد تعلمنا حكمـــة الانسان وعلينا أن نتخذ لنا وطنا ، ان الانسان متفوق علينا ، لانه صاحب وطن وعلينا أن نحذو حذوه ·

وعرت الدهشـــة وجوه الحيـــوانات التى لم تفهم ما قالته النحل ، وما فيـــه من حكمة ونفع ·· وراح النمر يتساءل ولماذا يكون لنا وطن ؟

فردت النحل ·· لـــكى نكون أحرارا فلكل حر وطنه ، ولـــكنكم لا تفهمون ما يعنيه الوطن للاحرار ، لانكم لا تفهمون معنى التوالد العذرى الذى نفهمه نحن· ونحن كالانسان ، سواء بسواء ، دعونا نقيم لنا وطنا كوطنه، لنكون فيه أحرارا

وردت الحيوانات كلها بصوت واحد :

ولكن السنا بالاحرار الآن ، فقالت النحل .. لا ، وليس هذا هو موضوعنا اننا بحاجة الى بلاد. فأني وطنكم؟ وهل لاى منكم بلاد ؟ ، فلا معنى للحرية ، اذا لم يكن لكم بلد أو وطن .

وسكتت الحيوانات على مضض ، فهى لاتستطيع أن تفهم لان ماتقوله النحل فوق مستوى عقولها المحدودة . وأمسكت الببغاء بالاغصان ، وطاطأت برأسها الى الارض موافقة على فكرة النحل ، وسرعان ماانتقل الهمس من حيوان الى آخر ، وعم التجاوب مع الفكرة واتخذ القرار باقامة الوطن .

وعهدت جماعة الحيوان الى النمل والنحل بتأمين المطلبين الاساسيين للوطن وهما الحدود والراية ، فاختارت النحل الوان «قوس قزح» لتكون الراية مؤلفة منها ، وسرعان ماتولت نسجه ورفعته مرفرفا فوق الغابة رمزا للوطن الحر .

وشرعت النمل فى اقامة الحدود ، ولم يمض طويل وقت حتى كانت الاسوار ترتفع ثمرة الجهد المضنى حول الوطن وتولت العناكب احاطة سقفه بسياج من نسيجها .

وعاشت الحيوانات داخل هذه الاسوار مرحة ، يوما بعد آخر . ودأبت على ارتقاء الاسوار يعلو صوتها بالنشيد والغناء، بينما يرفرف العلم فوق الوطن الحر ، الذى منع على الحيوانات الغريبة الدخول اليه .

وتعاقبت الشهور ، وخفت الحماسة وضعفت بصورة متدرجة وأخذت الحيوانات تقف على الاسوار ، متطلعة الى

الخارج ، تحرمها اللهفة ، ولكنها لاتلبث أن تسرى عن نفسها بأن البلاد بلادها ، وان لانظير لها ولا لاسوارها ، وان عليها أن ترضى بها وطنا سعيدا ، ومستقرا آمنا لها ·

وأحس النمر ، وكان أكثر الحيوانات فرحا بوطنه فى البداية ، بشعور غريب يستبد به ، انه يشكو الظمأ لاول مرة فى حياته ، فهو يشرب ويعب الماء عبا ولكن الماء لايروى له غليلا ، ولا يطفىء له عطشا ، انه يحس بجفاف مرعب فى حلقه ، لايدرى له سببا ، وسيطر عليه القلق ، واستبد به ، وظل يخطو من مكان الى آخر ، داخل أسوار الوطن ·

وسرعان ما انتقل هذا القلق الى الحيوانات الاخرى ، فهى لا تهدأ ولا يستقر لها قرار ·

وجاءت نحلة من الجنوب ذات يوم تقول ·· ان الرجل الذى غادر الغاب قد مضى الى الحرب مدافعا عن وطنه ·· وقالت للحيوانات ، انه عندما يعود ، سيوضح لها سبب ما نعانيه من ضيق ، فنحن نفتقد شيئا ، ولا ريب فى أنه يعرف مانفتقد ، فهو يحارب دفاعا عن وطنه منذ أربع سنوات ، ولا بد له أن يؤوب ، فلننتظر أوبته ·

وتلهفت جماعة الحيوان لعودة الرجل الا النمر ، فلقد كاد الظمأ يقتله ·· وأخيرا عاد الرجل الى بيته المهجور ·· يقوده ولده الصغير من يده ·

وقال الغراب عندما رأى الرجل والطفل يقوده ·· أنا أعرف ما حدث له فلقد سبق لى أن رأيت رجلا مثله ·· انه أعمى ، لايرى شيئا ، ولذا فهو فى حاجة الى ولده ليدله على طريقه ·

أجل لقد عاد الرجل مريضا وقد فقد بصره ، واعتكف فى منزله أياما لايبرحه وأخيرا ، خرج فى ليلة دافئة يجلس أمام منزله ، وقد لفته الغابة الكثيفة بأشجارها الباسقة ، المرتفعة الى السماء ، التى رصعتها النجوم ، وراح نسيم الليل الدافىء يداعب وجنتيه ·

وأحس الرجل الضرير ، انه ليس وحيدا فى هدأة الليل ·· ولم تمض لحظات ، حتى سمع صوتا يبادره من أعماق الظلام قائلا ·· لقد أقمنا وطنا ولكننا لاندرى ما نفتقد ؟ ولقد كنا ننتظر أوبتك بفارغ الصبر لتشرح لنا ما نعانيه والعلة فى ما نحس به من آلام ، قل لنا بربك ·· لم نحس بالتعاسة؟ لقد دافعت عن وطنك سنوات أربع ، ولا ريب فى أنك تعرف سبب شقائنا · فلم لاتدلنا عليه ·

ومضى الصوت المتردد يتلو على مسامع الرجل كل ماحدث فى غيبته ، وأحنى الضرير ، هامته قليلا ثم رفع رأسه ، وانطلقت الكلمات من فيه بهدوء ورصانة قائلا ·· نعم ·· فى وسعى أن أبين لكم سبب شقائكم وتعاستكم ·· ان الوطن الذى أقمتموه ، لاينقصه شىء ، وليس فيه مجال لمزيد من التحسين ، لكن كل ماحدث هو انكم باقامتكم حدودا لهذا الوطن ، أضعتم بلادكم وحريتكم ·

وشعر النمر ، ان ظمأه قد انتهى ، وان حلقه الجاف قد ترطب بشىء بارد وانبعثت من أحاسيسه موجة دافقة من الحرية الكامنة العنيفة ، وانفجر بصوت راعد ، هو الزئير بعينه يقول ·· حقا هذا هو الصدق كل الصدق · لقد فقدنا حريتنا ·

ومضى الجندى يقول ·· أجل ، لقد

بنيتم لانفسكم سجنا ، فقد كنتم أحرارا بلا حدود ، لكنكم أضعتم حريتكم ٠ ٠ عندما أقمتم لانفسكم حدودا ، فبلادكم ليست هذه الرقعة الصغيرة من الارض، ولا شاطىء النهر ، وانما الغابة كلها هى بلادكم تماما كما ان بلاد الرجل هى ٠٠

وهنا توقف الرجل عن الحديث ٠٠ فقد سمع صوتا ساخرا ٠٠ يسائله لاول مرة ، ولم يكن قد سمعه يتحدث من قبل ٠٠ وما هى بلاد الرجل ؟

وتريث الجندى لحظة ثم استدعى ولده البالغ من العمر ثمانى سنوات ٠ وأقعده في حضنه ثم شرع يقول ٠

أنا لاأعرف هذا الصوت الذى وجه سؤاله الى ، ولا أعرف اذا كان من أهل الغابة أولا ، ولكنى سأجيب على سؤاله على اى حال ٠٠ أجل لقد حاربت دفاعا عن بلادى أربع سنوات ، وفديتها بدمى وبحياتى ٠٠ وها أنا أخاطبك يا ولدى وقد لاتفهم ممـا أقوله الكثير ، فأنت مازلت فى نعومة أظفارك ، ولكن شيئا مما سأقوله لك ، سيظل حيا في قرارة نفسك ، يشب معك كحلم ، لا تلبث أن تذكره عندما تصبح فى عنفوان الشباب

الوطن ياولدى، هو خلاصة كل مانحب فهو يبدأ من النار التى نتحلق فى الدار حولها لنصطلى بدفئها ، ولكنه لا يقف عندها ٠ فالصديق الصدوق الذى نحبه لا يجلس معنا الى تلك النار ، كمـا لا يجلس اليها معنا ، ذلك الرجل ذوالقلب الكبير الذى نجله ونحترمه ، ولايجود به التاريخ الا جيلا بعد جيل ، ولا يضم مجلسنا ذلك الفيلسوف الذى يبعث فينا العزم كلما لحق بنا الاجهاد فى كفاحنا المضنى ، ولا الحبيبة التى نتعشقهـا ولكن أينما يوجد هؤلاء الناس الذين يشتركون فى حبنا ، أى أرض يقيمون فيها وأى نسيم يعبون منه ، هو أرضنا ووطننا وهواؤنا ٠

فكل شبر من الارض يقيم فيه انسان ذو نية صافية طيبة ، هو جزء من بلادنا فالوطن حب لا واجـب ، والمـدى الذى تصل اليه الروح ، هو جزء من هـذا الوطن ٠

وما نعتبره شرفا ونبلا فى هذا الجانب من الحدود ، قد يكون كذلك فى الجانب الآخر ٠٠ فالنهر طريق يصل بيننا وبين من نحب ، والرجل الذى يفلق قلبه عند أحد الانهار ، يحيل هذا القلب الى سجن مقيت ٠

ضع ياولدى حدود بلادك بدماء قلبك، فكل ما يخفت من قلبك خفقانه ، سواء كان قريبا منك ، أو على بعد ألف ميل هو غريب عنك ٠

وتعتمد قوة بلادك على قيمتك ، فقطعة الارض لاتساوى شيئا أكثر من الرجل الذى يخطو عليها ، وعندما يختزن فؤادك بحرارة حب ذوى القيم الحقيقية ، دون اكتراث بنسبهـم أو أهلهم ، فآنذاك تصبح بلادك ، وهى خلاصة حبك البلاد التى لامثيل لها فى العالم ٠

واذا ماشهدت يابنى قبسا من الحب والعدالة أو شهابا ، فاتبعه اتباعا أعمى وذلك لان بلادك هى جماع هذه اللمح أو القبسات ، واذا رأيت أن العدالة قد ديست فى بلادك ، وان الخير قد امتهن، فانسحب منها كوطن لايليق بك ٠ ٠ واذا رأيتنى ، أنا والدك الذى طالمـا آمنت بى، ارتكبت خطأ، فأخرجنى بعيدا من فؤادك ، مع اننى أنا الذى كونتـك

وتوليت تنشئتك ورعيتك ، أعز اليك من بلادك .

واننى أحذرك من بضع كلمات قد تسمعها أحيانا ، وهى أن المثل الأعلى للبلاد يرتكز على المنطق الجاف ، وينوو مع العاطفة .

كلا يابنى .. وألف كلا .. انه المنطق الجاف الذى يقال فى المعنى الحقيقى للوطن ، فيجعل منه أنانية قاسية ، والعقل وحده هو الذى اخترع للحدود والجمارك والحواجز فائدة ، وهو الذى حصد المثال الأعلى للوطن فى نطاق المنفعة وشوه الطريق الطبيعى للوطن وتفكير العقل السقيم هو الذى شوه المنطق ، فجعلنا نتآخى مع الغريب ونبتعد عن الغريب .

ان الوطن الذى يرتكز الى مثل هذا المنطق ، يدمر كل احساس ، واذا نبعت العاطفة الوطنية من الحب ، وكان الحب تلهفا للحصول على مثل أعلى ، فوطن كل انسان ، يمتد الى أبعد الحدود ، حتى يجد خطا يوقف امتداده ، والبشر ذوو القلوب العمياء هم وحدهم الذين يستطيعون بلوغ الرضى داخل حدود معينة وتحت خفق راية واحدة .

ويحدد العقل الوطن ، بالاراضى التى يشملها ، أما الاحساس .. فيحدده بقيمة الناس الذين يعيشون فيه ، وكل رجل ينسجم فى دقات فؤاده ، مع دقات فؤاد أخيه الذى قد يكون بعيدا عنه .. وكل رجل يتألم لحيف يقع مهما كان بعيدا ، يملك ذلك الشىء النادر النقى ، وهو المثل الأعلى ، وهو وحده ، يستطيع أن يفهم الاخوة السعيدة التى تربط بين البشر ، وهى الاخوة التى تقيم الوطن الحقيقى .

تذكر هذه الاقوال ياولدى ، عندما تكبر وتشب عن الطوق .

وتوقف الرجل عن الحديث وتفرقت الحيوانات التى ظل الصمت يلفها طوال حديثه ، وقد اهتزت مشاعرها ، ولكن أيا منها لم يعد الى الوطن الذى ابتدعته ففى تلك الغابة الفسيحة ، يقوم السلام الذى خسرته ، وتوجد تلك الحرية التى افتقدتها ، ونحو هذا السلام وتلك الحرية ، مضت الحيوانات ، بعد أن دمرت الحواجز التى أقامها النمل ، ومزقت نسيج العناكب ، ونشرت راية النحل .

أما الغراب وهو المعروف بحكمته ، فقد أدار رأسه من ناحية الى أخرى وتفرس فى الجندى الضرير قائلا .. هذا حسن وجميل .. ولكن الرجل الذى حارب طويلا من أجل بلاده ، ثم جاء يتحدث بمثل هذه الاقوال ، لا يستحق أن يظل حيا ..

ومضى الغراب مصفقا بجناحيه .

وحقا ، فقد مات الرجل بعد ايام .. ولكن شيئا منه ظل حيا ..

لقد ظل ولده يتذكر أقواله ، ليعيش فى المستقبل رجلا حرا .